هل تعود إلى القاهرة

لحضرة صاحب السعادة محمد على علوبة باشا

ذكرت الصحف أن حاكم القاهرة العسكرى قرر فصل ثلاثة آلاف من الشبان المتطوعين للرقابة أثناء الغارات الجوية ، لأنه ثبت لديه أن بعضهم لا يقدرون معنى المسئولية التى تطوعوا لحملها وأن البعض الآخر يهملون أداء واجبهم وينصرفون الى مشاكسة الأهلين استنادا الى سلطة وظائفهم .

ولا بد أن الذين قرأوا هذا الخبر قد عراهم الأسى وتولاهم الأسف لهذه الحال التى تلجئ الحاكم العسكرى الى الاستغناء عن ثلاثة آلاف شاب لأنهم " لا يقدرون المسئولية " أو " يهملون أداء واجباتهم وينصرفون الى ... ... مشاكسة الأهلين " .

والمشاكسة هنا تعنى أشياء كثيرة . فإن هؤلاء المراقبين إنما يحتكون بالجمهور فى الليل أى فى الظلام ويتحدثون بلهجة الأمر إلى أعضاء البيت من الجنسين ، فالمشاكسة هنا تبعث الى الذهن أسوأ الظنون ، وأقل ما تدل عليه أن الشاب المشاكس قد عدم الشهامة والمروءة .

الوقت ليل والكون مظلم والمصابيح مطفأة والقلق مخيم على النفوس ، وهناك نساء وفتيات ليس لهن جلد الرجال قد استولت عليهن رعدة وهن ينتظرن من وقت لآخر سقوط قنبلة وانهيار البيت ، فإذا طارق يطرق الباب . ويحسب سكان البيت أنه قد جاء لكى يطمئن ويشجع ويهدئ . ولكنهم بدلا من ذلك يجدون الشاب المغازل المتمحك الثقيل . فأين الشهامة وأين المروءة وأين الشرف ؟

لقد ألفت محافظة القاهرة نفسها عقب دخول ايطاليا الحرب فى حاجة الى ثمانية آلاف مراقب يعاونون الناس على تحاشى المخاطر ويسعفونهم عند وقوع الكوارث ويطوفون فى الليل وقت الغارات ليمنعوا تسرب الأنوار الى خارج المنازل ولم تأنس فى شرطتها التى تحمل أعباء أخرى لصيانة الأمن العام سعة الوقت أو كفاية العدد لهذه المهمة الانسانية السامية ، فكلفت الشبان المتطوعين القيام بها وانتظرت منهم الرجولة والشهامة فلم تجدهما ، بل وجدت ذلك الشاب الذى يشتفى من خصمه باتهامه بإضاءة منزله . ووجدت ذلك الآخر الذى يتطلع ويزعم أن النور ظاهر من إحدى النوافذ لكى يدخل ويتحكك بسكانه ، ووجدت ذلك الثالث الذى يلتقى بسيدة فى الطريق فبدلا من أن يرشدها ويجدها فى الظلام يتعمد إيذاءها فى حياتها .

الحكومة تثق بالشباب وتكل اليهم مهمة كلها رجولة وشرف وشهامة ، فلا تجد من الشباب غير هذا التنكس فى الأخلاق والصغار فى السلوك والانتهار للفرص بغية تحقيق شهوات خسيسة ، ثم تنتهى بعد التجربة بالاستغناء عن ثلاثة آلاف من ثمانيه آلاف أى ما يقرب من النصف .

وهذا السقوط الخلق لم يذكر عن عشرات أو مئات وانما ذكر عن آلاف . والحق أن مثل هذه الحالات تدعو إلى القلق العظيم فإن شبابنا هم عدة مستقبلنا . فإذا كانت هذه العدة مختلة من الآن فكيف نعتمد عليها فى السنين القادمة حين تنشد الأمة رجالها لكى يحملوا أعباءها ويؤدوا واجباتها ؟

كانت الشكوى من أخلاق الشباب تبدو من وقت لآخر على صفحات الجرائد ، ولكنا لم نكن نحسب أن مثل هذه الظروف — ظروف الظلام والخوف — يمكن أن تستغل لأغراض دنيئة . والحق أنه قد آن الأوان لأن نصارح بل نصرخ حتى يتنبه الغافلون ويعملوا للإصلاح حتى ولو تطلب الأمر سن تشريعات جديدة وتشديد العقوبات القائمة .

وقبيل الحرب حين كان الاصطياف عاما على الشواطئ كنا نسمع عن الاستهتار المتفشى ، وكان بعض شيوخنا ممن يغارون على الفضيلة يلحون فى الفصل بين الجنسين على الشواطئ ، وكنا نظن فيهم المغالاة ونعتقد أن الحال لاتدعو الى كل هذا القلق . ولكن من منا الآن يظن أن الصيحات الماضية كان يخالطها أدنى غلو ؟ ألسنا نرى فى هذا الخبر الذى رويته الصحف ضوءا جديدا يصب على هذا التعفن الأخلاقى بين شبابنا ويوضح لنا الخطر الذى يستهدف له مجتمعنا اذا تركنا الحبل على الغارب ولم نضع الشكيمة واللجام فى موضعيهما .

هناك على الشواطئ تنشد العائلات الصحة فى هواء البحر وأشعة الشمس ، بعضهم فى الماء وبعض آخر على الرمال ، فاذا بشاب يحاول التقرب من الفتيات ولا يبالى الحياء ولا يكترث لنظرات الأم أو الأب . وكثيرا ماتستحيل هذه النظرات ألفاظا عنيفة من التوبيخ والتبكيت . والبحر مع سعته يضيق ببعض الشبان حتى ليتركوا مكانهم منه ويقتربوا الى حيث تستحم الفتيات ثم يكون الإغراء والإغواء اللذان لاينقطعان الا بعد تدخل أحد الوالدين . وهكذا تجرى المفاسد ويتوالى العبث ويشهر بالفتيات دون رحمة من هؤلاء الشباب الذين "لايقدرون المسئولية الملقاة على عواتقهم" والذين "ينصرفون الى مشاكسة الأهلين" على حد قول محافظ العاصمة .

ثم نكون فى القاهرة أو فى الأسكندرية ونعمد الى ركوب الترام أو الأتوبيس فنجد الشبان يغتنمون فرصة الزحام ويتحككون بالسيدات أو الفتيات . وهؤلاء المسكينات عاجزات عن ردهم اذ يجدن أنفسهن بين عامل الخجل الذى يحملهن على ايثار الصمت وعامل الشرف الذى يعين على صد هؤلاء الشبان باليد أو اللسان . وكان يجب على الجمهور أن يستشعر ضعف نسائنا وأن يعينهن بقمع هؤلاء الشبان كلما وجد منهم لفتة أو عدوانا . ولو أن شابا وجد من الجمهور تأديبا مرة أو مرتين لاتعظ وصلح وكف عن مشاكساته سائر حياته .

ونحن الذين جاوزنا سن الشباب نتساءل : لماذا كنا أيام شبابنا على حياء عظيم لا نكاد نجرؤ على أن نتطلع الى سيدة أو آنسة فى حين لا يبالى شباب هذا العصر أن يجابهوا السافرات بالكلام الفظ والإيماءة الوقحة والعبث المهين ؟

ويقال لنا فى الرد على هذا السؤال إن العالم قد تغير بعد الحرب وإن الأقيسة الأخلاقية القديمة قد تزعزعت وإن الحرية الجديدة قد جرأت الشبان على ما كنا نقف إزاءه متحفظين خاشعين . فإذا صح هذا التعليل وجب أن نندب هذا الحظ الذى وقع فيه شبابنا وان نعمد فى سرعة عاجلة الى إصلاحهم فنردهم الى حظيرة الفضيلة التى نزعوا عنها مغترين بحرية قد جنت على نفسها بالمبالغة والإسراف حتى صارت إباحية ضارة .

وليس من شك فى أن هذا التعليل يتضمن بعض الحق . فإن الاستقرار الذى سبق الحرب الكبرى قد تزعزع عقبها . والعلاقات بين الجنسين قد طرأ عليها تغيير كان بعضه حسنا ولكن بعضه أيضا كان ضارا . والاحترام بل الوقار الذى كنا ننظر به الى المرأة قد خف وزنه ونقصت قيمته . وعلينا جميعا أن نصلح هذه الحال وأن نتعقب أعراض الفساد لكى نتعرف بها الى عناصره ونعالجها .

فعندنا مثلا بعض المسرحيات التى يتفرج برؤيتها جمهور الشباب فيسمع فيها الأقوال والاراء الناشزة كما يرى الإيماءات والحركات التى تجعل عواطفه نوعا من العربدة لا يطاق، فلم لا نصلح هذه المسرحيات ؟

وعندنا أغان وقصص وأناشيد ترسلها محطة الاذاعة على أمواج الفضاء ، وهى ليست بريئة مما يفسد العقول بالنكات الفجة والألفاظ الفظة ولا مما يهيج العواطف بالإحساسات الفاجرة . فلم لا نقضى على هذه الأغانى والقصص والأناشيد ؟ .

وعندنا أيضا مجلات أسبوعية ما كان أسعدنا حين كنا نجهلها قبل الحرب الماضية ! ولكن هذه المجلات تفشت فى جونا الصحفى كأنها طفح الحمى على جسم المريض ، تسود صفحاتها بطائفة من الصور والأخبار التى تثير فى النفس التفاتات واحساسات غير بريئة . والشاب يتأملها ويتخيلها كأنها بعض حياتنا المألوفة فلا يبالى بعد ذلك أن يترسم هذا الخيال فى حياته الواقعية. وخاصة لأنه يرى الكبار يقرأون هذه المجلات التى لا يصح لشخص مهذب أن يقرأها . فلمَ لا نعمل بكل الوسائل على الحيلولة دون نشر هذه المجلات فى الجمهور ؟

ثم عندنا بعد ذلك القصص التى تصدر بمعدل اثنين أو ثلاث كل أسبوع وهى دعارة قلمية تفسد الأذواق والأخلاق . فلم لا نطالب الحكومة بمكافحتها كما تكافح سائر الموبقات ؟

أجل كل هذا يستحق الإصلاح . واذا كانت الحرب الكبرى قد أحدثت بعض التفكك الأخلاقى فليس فى هذا ما يمنع الإصلاح أو يدعو الى السكوت والرضى . فانه يجب على محررى صحفنا وعلى وعاظنا وعلى مؤلفى مسرحياتنا وعلى محطة الإذاعة وعلى الآباء وعلى الحكومة أن يتعاونوا جميعا على بعث الرجولة والشهامة بين شبابنا وعلى إشعارهم بأنهم رجال المستقبل إذا أردنا أن يكون لهذه الأمة مستقبل وأن يكون لهذا المستقبل رجال .

محمد على علوبه